**المحاضرة : مدخل لنظريات الاتصال واهميتها في دينامكية التواصل و التفاعل الانساني:**

**تمهيد:**

ليست النظرية من كماليات البحث العلمي بقدر ما هي ضرورة ملحة للباحث الاجتماعي، لذا فالدعوة إلى التخلي عنها أو التقليل من أهميتها يجب مواجهتها بالرفض التام حتى لا يُحرَم الباحث من الأرضية الرئيسية لتأسيس علمه، إذ أنه بدون نظرية تمثل رصيدا لأي علم فلا وجود لأي أساس للعلم. إذن أهمية النظرية تكمن في أننا نقرأها لا لنفهمها ونطورها فحسب بل لأن النظرية تمثل نمطا لبناء المعرفة العلمية وضرورة لكل ملاحظاتنا، إنها الشرط الضروري لانطلاق التفسير والتحليل حتى وإن كانت غير كافية حينا لإحداث قطيعة تامة مع التفسيرات غير العلمية. فلماذا الاهتمام بالنظرية؟

يرى العلماء أن التقدم العلمي لا يمكن أن يتم إلا إذا أُنجز على مستوى نظري، بيد أن المعرفة العلمية ليست مجرد تراكم للمعارف، ذلك أن صياغة النظريات العلمية وتصوراتها وتنظيماتها إنما تتحكم فيها مجموعة من الفرضيات والمفاهيم التي يسميها،، توماس كوهين ( Thomas Kuhn )في كتابه الشهير عن " بنية الثورات العلمية "،، بـ " الشكل التحليلي " ؛ هذا المفهوم الذي لم تحظ ترجمته بالرضى لدى الباحثين العرب. وفي واقع الأمر فإن التقدم في البحث العلمي والتنظير ليس مسالة متوازية المسير بل متلازمة. فالتقدم العلمي لا يتمثل بمجرد تجميع للحقائق فحسب بل هو عملية تبرز في التغيير النوعي في بنية الأنساق النظرية. فإذا كان هدفنا هو الوصول إلى خلاصات هامة تتجاوز ما هو متعارف عليه فلا يمكن تحقيق ذلك من الاعتماد على الجانب الامبريقي دون ضبط للجانب التنظيري وإلا باتت بنية الأنساق النظرية جامدة وفقيرة. يشير عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز ( T.Parsons ) إلى النظرية من حيث وظيفتها أيضا في البحث العلمي: " فالنظرية لا تصبح فقط ما نعرفه ولكنها تقول لنا أيضا ما نود معرفته

1. **تعريف النظرية العلمية**: قالب فكري منظم يبدأ بمجموعة من التخيلات العقلية (فروض علمية) تقوم بربط مجموعة من المتغيرات تعين الباحث على تفسير العلاقة بين هذه المتغيرات تفسيرا منهجيا" . **"**مبدأ عام تشكل لتفسير مجموعة من الظواهر المترابطة، أو نظام من التقريرات/ التقارير الفرضية يهتم بتفسير جانب محدد من العلم."

ويقدم بعض العلماء تعريفا للنظرية بأنها: " مجموعة من المسلمات أو الافتراضات المتلازمة لتفسير (الشخصية والسلوك الإنساني) أو (الظاهرة الإعلامية)**.**

وفي تعريف آخر **النظرية:** جسم مؤسس على قاعدة عريضة من قوانين، فرضيات، وحقائق علمية لتفسير ظاهرة طبيعية ما بأدلة مادية ملموسة ومقنعة تم التأكد من صحتها بالتجربة أو الملاحظة لمرات عديدة".

* 1. **شروط النظرية**: ويشترط في النظرية العلمية توفر الشروط الأربعة التالية:
* الخضوع بنجاح لاختبارات علمية دقيقة ولمرات عديدة.
* القدرة على التنبؤ والتفسير.
* الاتساق: أي أن تحقق شروط الاتساق مع احدى النظريات السابقة، بالرغم من أن النظرية الجديدة ستظهر في الغالب عدم دقة النظرية القديمة.
* قلة التأويل والتفاصيل: أي أن تكون النظرية بسيطة وذات مكونات واضحة ومحددة الألفاظ ودقيقة المعاني بحيث يصعب تأويلها أو إساءة فهمها.

**إذن النظرية، هي محصلة دراسات وأبحاث ومشاهدات وصلت إلى مرحلة من مراحل التطور وضعت في إطار نظري وعملي لما تحاول تفسيره، كما أن النظريات قامت على كم كبير من التنظير والافتراضات التي قويت تدريجيا من خلال اجراء تطبيقات ميدانية، وأن أهم ما يميز النظرية وقدرتها المستمرة على إيجاد تساؤلات جديدة بالبحث، إضافة إلى استكشاف طرق جديدة للبحث العلمي.**

**2. النظرية الاتصالية:**  حدد "وارنرسيفرين" و"جيمس تانكرو" أربعة مراحل متتالية لبلورة نظرية الاتصال، وهي: -فحص العلاقة بين أمرين بينهما ترابط يحتاج معلومات لفهمه.

-وضع فروض لتفسير هذه العلاقة

-محاولة وضع نموذج يقرب عملية التفسير والفهم

-الوصول إلى قانون يحكم الظاهرة.

فالنظرية **الاتصالية** هي تلك البحوث والدراسات التي تتعلق بالاتصال سواء ما يتعلق منها بالمرسل أو المستقبل أو الوسيلة أو الجمهور أو كلاهما معا" (مي العبد الله، ص

والنظرية **الاعلامية** هي خلاصة نتائج الباحثين والدارسين للاتصال الإنساني مع الجماهير بهدف تفسير الاعلام ومحاولة التحكم بها والتنبؤ بتطبيقاتها وأثرها في المجتمع. فهي توصيف للنظم الإعلامية في جميع دول العالم.

وتقول الدكتورة مي العبد الله أنه "لا توجد نظرية اتصالية خالصة متفق عليها وعلى كيفية عملها أو تأثيرها في الجمهور بين علماء الاتصال أو الباحثين في حقل الاتصال. إنما توجد عدد من النظريات التي تقدم تصورات عن كيفية عمل الاتصال والاعلام وتأثيره وهي في الوقت نفسه تساعد على توجيه البحث الاتصالي والإعلامي إلى مسارات مناسبة"**.**

ويقول عالم النفس الاجتماعي "كورت لوين" في عبارة شهيرة له: "ليس هناك شيء أكثر عملية من نظرية جيدة، إن النظرية الإعلامية تستهدف تحسين فهمنا لعملية الاتصال الجماهيري، وبهذا الفهم الجيد سوف نكون في وضع أفضل للتنبؤ والتحكم في نتائج الجهود الإعلامية".

**3-التطور التاريخي لنظريات الاتصال:**

* لقد أدى تطور وسائل الاعلام عبر مراحل التاريخ المختلفة ومحاولات الباحثين والمفكرين لدراسة الاتصال ومكوناته وعناصره إلى ظهور نظريات للاتصال الجماهيري في بداية القرن العشرين[[1]](#footnote-2)\* وازدادت الدراسات بعد الحرب العالمية الثانية نظرا لإيمان الدول المتحاربة آنذاك بقوة تأثير وسائل الاعلام والذي كان السبب في بداية الدراسات العلمية التي أجريت من قبل علماء ومفكرين في علم النفس والاجتماع والرياضيات، ذلك أن البحوث الإعلامية الأولى كانت تتم في إطار مفاهيم ونظريات ونماذج منهجية مستوحاة من تخصصات أخرى، ومن اشهر هؤلاء الباحثين والمفكرين: لاسويل، شانون، كاتزولازرسفيلد، وماكلوهان وبارك، وذلك لتحديد تأثيرات وسائل الاعلام على الجماهير ومعرفة الاثار المحتملة لهته الوسائل.
* وقد ازدادت أهمية هذه الأبحاث بعد أن تطور علم الاتصال والاعلام وأصبح علما قائما بذاته وله مفكروه وباحثوه الذين توسعوا في دراسة وسائل الاعلام وجمهوره وتأثيراته والتي أدت إلى ظهور النظريات والنماذج والفرضيات المفسرة لعمل وسائل الاعلام والاتصال.
* وتاريخ نظريات الاتصال في بدايته يكاد أن يكون تاريخ نظريات التأثير الاعلامي نظرا لإقبال الباحثين والعلماء على هذا الجانب في دراسة العملية الاتصالية والاعلامية بشكل كبير جدا.
* وقد مرت نظريات تأثيرات الاعلام بعدة مراحل، فقد أسندت الاتجاهات الأولى في هذا المجال قوة كبيرة إلى الاعلام للتأثير على الجمهور. وتم إيجاز هذا النوع من تأثير الإعلام في مفهوم عرف باسم نظرية **الرصاصة** Bullet theory أو نظرية **الحقنة تحت الجلد**Hypodermicneedletheory ووفقا لهذا المفهوم فإن أفراد الجمهور كانوا معزولين عن بعضهم البعض، وبالتالي كانوا أهدافا سهلة لتأثير الرسائل الإعلامية.

وبعد مدة من الزمن وعدد كبير من البحوث حول كيفية عمل وسائل الاعلام توصل الباحثون في الاعلام إلى ان نظرية الرصاصة غير صحيحة. وقد تولدت هذه القناعة من الدراسات التي أجريت حول الانتخابات الأمريكية خلال الأربعينيات. وأسندت الرؤية الجديدة قوة أقل لوسائل الاعلام وتم تقديم فرضية **التأثيرات المحدودة** في كتاب جوزيف كلابر بعنوان " تأثيرات الاعلام The effects of Mass

Communication " وهنا تم النظر إلى الجماهير كأشخاص طبيعيين لديهم قدرة كبيرة على مقاومة الرسائل الإعلامية، بفعل عدد من العوامل التي تشمل دعم الآراء من طرف أشخاص آخرين، وأنواع مختلفة من التصفية النفسية التي تحدث عندما يستقبل الناس الرسائل الإعلامية.

وبعدها، جاءت بحوث جديدة في الاعلام أعادت إلى وسائل الاعلام بعضا من قوتها وان كانت لم تصل إلى ما كانت عليه في ظل نظرية الرصاصة. فقد أسندت نظريات جديدة مثل: **وضع الأجندة**Agenda-setting Theory ونظرية **الغرس الثقافي**Cultivation Theory ما يمكن أن نسميه **بالتأثيرات المعتدلة** لوسائل الاعلام والاتصال الجماهيري. واقترحت نظريات أخرى مثل نظرية دوامة الصمت Spiral of Silence ما يمكن أن نسميه تأثيرات قوية للاعلام في ظروف محددة.

والواقع أنه لا يمكن الحكم بأن التأثيرات النابعة من الاعلام كبيرة أو صغيرة، ولكن يمكن القول إن هناك عددا من المتغيرات التابعة التي يمكن أخذها في الاعتبار في إطار البحث عن التأثيرات المحتملة لوسائل الاعلام. وتبقى النظريات الإعلامية تمر بحالة من التغير المستمر، وربما تحتاج إلى مزيد من التغير أيضا كي تتوافق مع التغيرات في وسائل الاعلام الحديثة.

وفي هذا السياق، يقدم الدكتور" حسني محمد نصر " بعض التغييرات التي تمت ملاحظتها حول تطور نظريات ودراسات الاتصال والاعلام حديثا:

* أصبح هناك تركيز أكبر مما كان سائدا من قبل على استخدامات الجمهور لوسائل الاعلام، وذلك بعد أن أصبح الدور المهم لنشاط الجمهور أكثر وضوحا، في ظل الانتقال إلى أنماط جديدة من وسائل الاعلام.
* هناك تحول إلى علم الادراك أو مداخل معالجة المعلومات، ويتضمن هذا التحول ثلاث زوايا على الأقل:
* تحول في المتغيرات المستقلة من متغيرات الاقناع (مصداقية المصدر، على سبيل المثال) إلى مفاهيم مثل المعالجة (طبيعة اللغة المستخدمة مثلا)، والهيكلية (كيف يتم تجميع حدث من الأحداث وتقديمه في وسائل الاعلام).
* تحول في المتغيرات التابعة الخاصة بالاتجاهات (على سبيل المثال مع وضد شيء ما) إلى المدركات (مثل المعرفة والمعتقدات عن شيء ما).
* تحول التركيز من التغير كنتيجة للاتصال (مثل التغيرات في الاتجاه أو السلوك) إلى إعادة البناء (مثل التغيرات في تصوراتنا أو نماذجنا لحدث ما، أو البناء الاجتماعي للواقع).

وبصفة عامة، فإن التغيرات السريعة في تكنولوجيا الاتصال تؤكد ضرورة أن يحاول الباحثون تشكيل نظرية اتصال تتجاوز التفاصيل الخاصة بوسيلة محددة أو تكنولوجيا معينة.

* بشكل عام، يقسم "ملفين ديفلر" وساندرا روكيتش" تطور نظريات الاتصال الى ثلاثة أجيال:

الجيل الأول: عبارة عن التفسيرات الأولية التي بلورت التفكير حول آثار وسائل الاتصال، مثل النموذج الارتقائي.

الجيل الثاني: وهو النظريات البدائية التي جاءت فيما بعد وحلت محل الأشكال الأولى، مثل نظرية القذيفة السحرية.

الجيل الثالث: وهي النظريات الحديثة، والتي كانت معظمها ردود فعل ضد أشكال الجيل الأول.

**4- تصنيفات نظريات الاتصال**

ثمة تناقضات متعددة داخل التوجهات والكتابات الخاصة بالتنظير والخاصة بتصنيف نظريات الاتصال. فدينس ماكويلDenis Mcquail قدّم، على سبيل المثال، تصنيفا موضوعيا كالآتي: نظريات البناء ونظريات المتصلة بالمنظمات، ونظريات المضمون والمعنى، ونظريات التاثير، ونظريات الجمهور.

أما ديفيد هومس David Homes فقد صنف نظريات الاتصال وفقا لنظريات تتناول الوسائل الإعلامية، والنظريات المرتبطة بالتكنولوجيا وتلك المرتبطة بالمجتمع. في حين قسّمها كل من دينس وسيتنالي وبران وفقا للعصور التي مرّ بها الاعلام، وطبيعة المجتمع الثقافية، والمنظور النقدي المعياري.

وهناك تصنيفات عديدة لنظريات الإعلام منها من يتخذ التصنيف وفق النمط الاتصالي (نظريات تتصل بالقائم بالاتصال، والمستقبل والوسيلة، والرسالة والتأثير) وهناك نظريات تصنف وفقا لنطاق نظريات صغرى (الخاصة بالفرد وبناء الاتجاهات) وكبرى (الخاصة بالمجتمع والثقافة والمنظمات) ومتوسطة ( الخاصة بالتجمعات الصغيرة واتجاهاتهم وميولاتهمأو تلك الخاصة بالمجتمعات المحلية).

**5-نظريات الاتصال وفق المدارس والاتجاهات الفكرية:**

وفيما يلي نستعرض تصنيف نظريات الاتصال ، وفق **المدارس والاتجاهات الفكرية** التي تنتمي إليها، وهي أربعة اتجاهات:

1. **النظريات النقدية**: وتنتمي إلى مدرسة فرانكفورت (تيودور أدورنوTheodor Adorno، مارك هوركهايمرMark Horkheimer، والتر بنيامين Walter Benjamin) والامبريالية الثقافية (أرماندماتلارArmand Mattelart) وتركز على الصناعة الثقافية وتبرير الهيمنة في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة وتهدف إلى معرفة العالم الاجتماعي وكيف يتم تغيره.
2. **النظريات الامبريقية (الوضعية):** وتتخذ موقفا متناقضا مع النظريات النقدية، ويظهر هذا التناقض بأنه مواجهة بين الطريقة الاوربية في بحوث وسائل الاعلام وطريقة أمريكا الشمالية في بحوث وسائل الاعلام، ومن أهم الباحثين الرواد في هذا المجال روبرت ميرتون، هارولد لاسويل، بول لازرسفيلد، ويلبرشرام وبصفة عامة تهدف إلى التفسير والضبط والتنبؤ**.**

وتميزت المدرسة الامبريقية بالبحوث الكمية والتطبيقية التي تبني المعرفة على أساس الملاحظة والتجربة وقد ركزت هذه المدرسة على دراسة تأثيرات الاعلام متجاهلة السياق الثقافي الواسع الذي يعمل فيه الاعلام.

1. **النظريات التأويلية (الثقافية):** وهذه البحوث مستوحاة من البحوث الانتروبولوجية، وهي تتجاوز مجال دراسات الاتصال الجماهيري، حيث ينظر إلى بحوث الاتصال بأنها بنى اجتماعية، لذا فإن تحليل صناعة الأخبار، والخطاب الاجتماعي والصراع الثقافي، وعملية الاستقبال .. يتم دراستهم عن طريق مزج السيميولوجياوالانتروبولوجيا، وتطورت هذه النظريات من خلال بريطانيا ( ريموند وليامز، ستيوارت هول)، وكذلك من خلال أمريكا اللاتينية (خيسوس مارتن باربيرو، ونستور جارسيا كانكلينيCanclini) في حين تركز البحوث البريطانية على تحليل الثقافات الفرعية وتحليل النصوص والجمهور، وتركز بحوث أمريكا اللاتينية على الثقافات الشعبية، وبحوث الوسائط، والممارسات الاستهلاكية.
2. **النظريات المعيارية:** وهي تهدف إلى وضع معايير مثالية وتهتم بدراسات القيم والاخلاقيات والمسؤولية الاجتماعية، والحتمية القيمية والحتمية التكنولوجية.

**6- نظريات الاتصال وفق عناصر العملية الاتصالية والاعلامية:**

هذا ويعتبر تقسيم نظريات الاتصال والاعلام وفق عناصر العملية الاتصالية والاعلامية من أشهر التقسيمات والتصنيفات أيضا ومن خلاله يقسم الباحثون النظريات الإعلامية إلى الأنواع التالية:   
**أ-النظريات المتعلقة بالجمهور**:  
يرتبط هذا النوع من النظريات بالجمهور المستخدم للمواد الإعلامية، ويقوم هذا النوع من النظريات على أساس أن الجمهور يستخدم وسائل الإعلام بسبب دوافع نفسية أو اجتماعية ومن هذه النظريات ما يلي:  
 \*نظرية الاستخدام والإشباع:  
\* نظرية الاعتماد على وسائل الإعلام:  
**ب-النظريات المتعلقة بالقائم بالاتصال**:  
تصنف بعض النظريات على أنها مرتبطة بالمرسل أو القائم بالاتصال ومن هذه النظريات ما يلي:  
\*نظرية الرصاصة أو الحقنة تحت الجلد  
 \*نظرة الفرس الثقافي  
 \*نظرية ترتيب الأوليات  
**ج-النظريات المتعلقة بنوع التأثير الإعلامي الذي تحدثه وسائل الإعلام في الجمهور:**  
وهي على ثلاثة أنواع:  
\* التاثير المباشر ( قصير المدى).  
\*نظريات التأثير التراكمي ( طويل المدى).  
\*نظريات التأثير المعتدل لنظريات الإعلام.

* وبناء على ما سبق ونظرا لوجود العديد من التصنيفات وتشعبها وتقاطعها فقد اخترنا عرضها فيما يلي من محاور وفق التقسيم الآتي: نظريات متعلقة بـ:
* وسائل الاعلام وعلاقتها بالسلطة
* القائم بالاتصال
* استخدام الجمهور لوسائل الاعلام
* نوع التأثير الذي تحدثه وسائل الاعلام (تاثير مباشر، قوي- تأثير معتدل، محدود)
* نظريات المحتوى

**7- تعريف النموذج في علوم الاتصال:**

يشير دينيس ماكويل وستيفن ويندال(Denis Mc Quail and Steven Windahl) إلى أن النموذج عبارة عن وصف مبسط في شكل تخطيطي لجزء من الحقيقة، بهدف بيان العناصر الأساسية لأي تركيب في العملية الاتصالية.

ويرى "محمد عبد الحميد" أن النموذج " عبارة عن بناء شكلي أو صوري أو رياضي للعلاقة بين العناصر او المتغيرات التي سنقوم بدراستها، وذلك للإسهام في تبسيط المعرفة وتنظيمها وشرح الظواهر العلمية ومساعدة الباحثين على التفسير.

**8- كيف ظهرت النماذج الاتصالية؟**

لقد تطورت المحاولات العلمية في السنوات الاخيرة والتي استخدمت طرق ومناهج البحث المتطورة، من أجل إجراء الدراسات والتجارب على وسائل الاتصال الجماهيري ومؤسساتها المختلفة، وذلك بعد تقدم علوم الاعلام والاتصال واستخدامها القياس العلمي الدقيق. وتكشف دراسة ما يسمى بنماذج وسائل الاتصال Models of Mass Communication عن أهمية علمية مميزة للتعرف بوضوح على طبيعة الجهود الأكاديمية البحثية المتخصصة، والتي استخدمها العلماء والباحثون من أجل تصنيف أنواع الاتصال البشري، ودراسة مضمون ومكونات الاتصال والعناصر والعلاقات البنائية والوظيفية التي تشكل العملية الاتصالية..الخ.

يرجع الاهتمام ببناء النماذج في الاتصال، تحديدا، إلى فترة الخمسينيات من القرن الماضي، وخصوصا في الولايات المتحدة الامريكية، عندما تطور الاهتمام بدراسة الاتصال كعلم له أصوله وقواعده، انطلاقا من إدراك الباحثين لأهمية وسائل الاتصال في المجتمع وتأثيراتها المختلفة.

وفي أثناء عقود الستينيات من القرن الماضي، وسبعينياته، كان الاهتمام ينصب على الجوانب النوعية لعملية الاتصال، مثل الاهتمام بالتأثيرات الاجتماعية والثقافية والايديولوجية وتنظيم وسائل الاعلام وعلاقتها بالمجتمع، والأسس الاجتماعية والنفسية لاختيار استجابات المستمعين، وبناء الأشكال النمطية للمحتوى وخاصة معلومات الأخبار وغيرها، أكثر من مجرد الحديث عن عملية الاتصال نفسها.

**9-الفرق بين النموذج والنظرية:**

أثبتت الدراسات العلمية الحديثة في مجال علم الاتصال أنه يوجد اختلاف حقيقي بين النظريات Theories والنماذج Models ويمكن تحديد هذا الاختلاف في النقاط الآتية:

* يوجد تداخل بين النظرية والنموذج حيث أن النموذج يفهم في سياق النظرية.
* النموذج يساعد النظرية في عملية البناء والفهم والتحليل.
* النظرية بناء كلي لعمل الاعلام بجزئياته أما النموذج فهو بناء جزئي لعمل الاعلام
* النظريات تركز على العلاقات الخارجية والمؤسسية أما النموذج فهو يركز على العمليات الداخلية الادراكية للإنسان.
* النظريات أكثر توجها للمجتمع وعناصره المادية والعلاقات الدولية والمحلية، النموذج أكثر توجها للانسان نفسه من خلال محاكاة أفعاله وتوجهاته.
* النموذج المستخدم يحدده هدف ومصالح الباحث. فالنماذج ذات طابع تحكمي في الواقع، والمعيار الأساسي للحكم على النموذج هو فائدته ومنفعته، وهذا الطابع التحكمي ينبع من أن النموذج ذاته يخضع لتقدير وتقييم الباحث الذي قام ببناء النموذج،
* أما النظرية فهي تعني المبادئ والقوانين الحاكمة لعلاقات الأشياء الظاهرة أو الكامنة الداخلية أو الخارجية وتعكس الواقع روحيا أو عقليا أو تجريبيا.

1. [↑](#footnote-ref-2)